الصَّحابةُ في مدرسةِ النبيِّ ﷺ

ماذَا تعلَّمَ الصحابةُ في مدرسة الرسول ﷺ ؟

إنَّ إجابةَ هذَا السؤالِ تحتاجُ إلى مئات الصفحات التي قد لا تفي بهذَا الموضوع الذي يتناولُ خُلقَ إنسان وصفَه اللهُ عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

فأيّ عدد منَ الصفحات يحيطُ بصاحب الخُلق العظيم؟

ولما سُئلتْ أمُّ المؤمنينَ عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ عنْ خلقه ﷺ أجابت إجابةً بليغةً فقالتْ:

«كانَ خلقُه القرآنَ».

وهكذَا تعلّمَ الصحابةُ في مدرسة الرسول ﷺ، تعلَّموا آيات القرآن وأحكامَه وتعاليمَه وآدابَه، وهيَ تتجسَّدُ أمامَهم حيةً في شخص الرسول ﷺ، والتي كانُوا يشاهدونَها ويلمسُونها منهُ وهوَ يعيشُ معهُم لحظةً لحظةً ودقيقةً دقيقةً.

وكانَ الصحابةُ ـ رضيَ اللهُ عنهُم ـ يتعلمونَ منْ كلِّ موقفٍ في حياة

الرسول ﷺ دروسًا عظيمةً في الإيمان والأخلاق.

ولقد تعلّمُوا في مدرسة النبوَّة فكانُوا خيرَ مَنْ حملُوا الأمانةَ، وبلَّغُوا الرسالةَ، ونشرُوا الإسلامَ في كلِّ مكانٍ.

ونستمعُ إليهم وهمْ يصِفُونَ خُلُقَ مُعلّمِهم صلوات الله وسلامه عليه.

فيقولُ الإمامُ عليُّ بنُ أبي طالب رضيَ اللهُ عنهُ:

- كانَ رسولُ الله ﷺ يَخْزِنُ[1] لسانَه إلا فيمَا يَعْنيه.

- ويُكْرِمُ كريمَ كلِّ قومٍ ويولِّيه عليهِم.

- ويحذَرُ الناسَ ويحترسُ منهُم من غيرِ أن يطوِيَ عن أحدٍ منُهم بِشْرَه وخُلُقَه.

- ويتفقَّدُ أصحابَه.

- ويسألُ الناسَ عمَّا في الناس.

- ويُحسِّنُ الحسنَ ويقوِّيه.

---

(١) كناية عن الصمت.

- ويُقبِّحُ القُبحَ ويوهِّيه.

- معتدلَ الأمرِ غيرَ مختلف.

- لا يغفلُ مخافَة أن يغفَلُوا أو يميلُوا.

- لا يقصرُ عن الحقِّ ولا يجاوزُه.

وسئلَ الإمامُ عليٌّ رضي الله عنه: كيفَ كانَ مجلسُ الرسول في أصحابه؟

فقالَ:

- كانَ رسولُ الله ﷺ لا يجلسُ ولا يقومُ إلا علَى ذكر الله تعالَى.

- ولا يوطِّنُ الأماكنَ (أي لا يكثرُ من المُكْثَ فيها)، وينهَى عن إيطانها.

- وإذا انتهَى إلى قومٍ جلسَ حيثُ ينتهي بهِ المجلسُ ويأمر بذلك.

- يعطِي كلَّ جلسائه نصيبَه (من العناية في الكلام والالتفات والاستماع).

- لا يحسبُ جليسُه أن أحداً أكرمُ عليهِ منُه.

- مَن جالسَه في حاجةٍ لا ينصرفُ حتى يكونَ هوَ المنصرفَ.

* وكانَ رسولُ الله ﷺ - وهو أكمل الخلق، وأطهر الناس، وهو المعصوم - لا يحبُّ أنْ يبلِّغَه أحدٌ من أصحابه عنْ أحد شيئًا؛ حتى لا يتأثَّرَ بكلامِ الناس بعضَهم عن بعض، فقالَ ﷺ: «لا يبلِّغَنَّ أحدٌ عن أحد من أصحابي شيئًا؛ فإني أحبُّ أن أخرجَ إليهم وأنا سليمُ الصدرِ».

* وتعلَّمَ الصحابةُ منَ النبيِّ ﷺ التواضعَ، عندمَا أقبلَ علَى رجلٍ فوجدَه تُرْعدُ فرائصُه من هَيْبة النبيِّ وخوفه، فقالَ لَه ﷺ: «هوِّنْ عليكَ يا رجلُ، فإنَّما أنا ابنُ امرأةٍ منْ قريش كانتْ تأكلُ القديدَ[1]..».

* وكانَ ﷺ يعلِّمهُم الشجاعَة والإقدامَ عندَ ملاقاة الأعداء، وعندَ الخطر، ويظهرُ لنَا هذا جليًّا عندَما نقرأ غزوات النبيِّ ﷺ وكانَ عليٌّ - رضيَ اللهُ عنهُ - يقولُ: «كُنَّا إذا حَميَ البأسُ واحمرَّت الحَدَق[2] اتَّقينَا برسولِ الله ﷺ فما يكونُ أقربَ إلَى العدوِّ منه».

---

(١) اللحم اليابس.

(٢) جمع حدقة وهي باطن العين.

* وكانَ ﷺ أوفَى الناس بالعهود، وأوصلَهم للرَّحم، وأعظمَ شفقةً ورأفةً ورحمةً بالناسِ، وأحسنَ الناس عشرةً وأدبًا، وأبسطَ الناس خلقًا، وأبعدَ الناس من سوء الأخلاق، لمْ يكنْ فاحشًا ولا متفحِّشًا ولا لعَّانًا، ولا صخّابًا في الأسواق، ولا يَجزي بالسيئة السيئةَ، ولكنْ يعفُو ويصفحُ، وكانَ لا يدَعُ أحداً يمشي خلفَه، وكانَ لا يترفَّعُ عنْ عبيده وإمائه في مأكلٍ ولا ملبسٍ، ويخدمُ منْ خدمَه، ولمْ يقلْ لخادمٍ أفٍّ قطُّ، ولم يعاتبْه علَى فعلِ شيءٍ أو تركه، وكانَ يحبُّ المساكينَ ويجالسهُم، ولا يتميزُ عن صحابته في عملٍ من أعمالهم[1].

لقد كانَ خلقُه القرآنَ، وخلقُ القرآنِ بحرٌ لا يُبلَغُ منتهاه.

ومعَ السيرة النبوية نرَى هذَا الخلقَ العظيمَ واقعًا عمليّاً يجسدُه الرسولُ ﷺ وصحابتُه الكرامُ.

(١) خلاصة السير ٢/ ٢٥٣ والرحيق المختوم ٤٢٥ بتصرف.